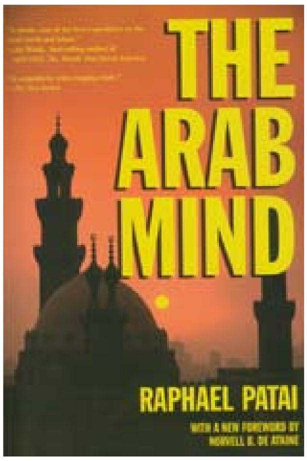

العقل العربي 67

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر
التحليل النفسي للتغريب

4. التركيز، القيم، التغيير

ينبغي على كل دراسة تتناول التحليل النفسي للتغريب في العالم العربي أن تقدم عرضا للاختلافات بين ثقافة الغرب وثقافة العرب؛ وهو أمر ليس من السهل القيام به، لأن تمثيل «الغرب» و«العالم العربي» وكأن كلا منهما كيان متجانس هو أمر يتطلب مستوى عاليا من التجريد والتعميم. فلا شك في أن كلا من «العالمين» يمكن اعتباره متجانسا على أرض الواقع بشرط النظر إليه من مسافة معينة. وهذا الأمر كان من الاعتبارات الرئيسية التي دعتني قبل عدة سنوات إلى اقتراح استخدام مصطلح «المحتوى الثقافي» لكل من الشرق الأوسط، الذي يشكل العالم العربي جزءه المركزي، والعالم الغربي، وللتأكيد على أن كلا من هذين «المحتويين الثقافيين» يتكون من عدة «نطاقات ثقافية» ذات حدود ظاهرة.

وعندما توضع تلك التحوطات بالحسبان، يتمكن المرء من محاولة القيام بتحديد ما يبدو وكأنه اختلافات أساسية بين الثقافتين و«الشخصية القومية» التي تتكون من خلالهما، بغض النظر عن مدى سطحية المحاولة. ويتمثل المنهج الأفضل في تقديم هذه الاختلافات من خلال صب الاهتمام على مواقع التركيز الثقافي، وهي الهواجس المهيمنة التي توجد في كل الثقافات، والتي تشكل نطاقات نشاط وإيمان يتواجد فيها أعظم وعي بالهيئة العامة للكيان، وفيها يتم تداول معظم المناقشات المتعلقة بالقيم وإدراك التنوع الأكبر في البنية، وهي التي تحصل على الاهتمام الأكبر من المثقفين. ويمكننا أن نذكر هنا من بين الهواجس التي تشغل تركيز الغرب، على سبيل المثال: التكنولوجيا، والبحث العلمي، والإيمان بالتقدم والانشغال به وهو يعني أيضا أن الإبداع والتغيير بنفسيهما يعتبران من المنافع، والوطنية، والديمقراطية، والحريات الفردية الأساسية، وما أشبه ذلك.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

لكن أيا من هذه الهواجس لم يكن محط تركيز العالم العربي؛ بل إنها لم تكد توجد على صعيد الواقع إلى أن جاءت عبر عملية التغريب؛ بل على الضد من ذلك، كان للعالم العربي مجموعة أخرى من الهواجس المهيمنة الفريدة بذاتها والتي لم تجد مثيلا لها عند الغرب الحديث، من أمثال: الدين، الحفاظ على التقاليد، العائلة، العفة الجنسية، وما أشبه. وكانت هذه الهواجس كثيرة التداول على الألسن إلى حد جعلها قابلة للاستغلال في انتقاد ثقافة بأكملها، أو الحط من شأنها، كما حدث بالفعل.[1]

قد يتوقع المرء أن مجتمعا كهذا يبدي معارضة عظيمة للتغيير في النطاقات المركّز عليها في ثقافته، وأن له ارتباطا عاطفيا بها، مما يجعلها تفرض عليه ولاء مخلصا يحول دون حصول الابتكار. ومن جهة أخرى، فإن الابتكارات التي تطال جوانب ثقافية من خارج نطاقات التركيز قد لا تلقى أية معارضة.[2] ولكن في ثقافة ذات اتجاه تقليدي بارز نجد أن التغيير والابتكار يُحال دونهما في كل النطاقات الثقافية؛ بل إن في مثل هذه الثقافة كلما ضرب جانب منها عميقا في الزمن تزداد قيمته التقليدية، وتزداد بالتالي مقاومة تغييره.

أما إذا كانت الثقافة تنحو منحى يشجع على الابتكار، كما هو حال الثقافة الغربية، فيمكن للمرء أن يتوقع علاقة تناسب طردي بينهما: فكلما اقترب هنا أحد الجوانب من

---

1) هذا التعريف للتركيز الثقافي يستند بشكل واسع إلى مقالة (عمليات التغير الثقافي) للكاتب ميلفيل هيرسكوفيتز (Melville J. Herskovits) في كتاب (علم الإنسان في أزمة العالم) الذي أعده رالف لينتون (Ralph Linton)؛ ص164-165. ويستند أيضا إلى كتاب هيرسكوفيتز (الإنسان وأعماله)؛ ص542، 544. ويجب أن لا ننسى هنا أن الكلام عن الهواجس المركز عليها أو المهيمنة في الثقافة ليست إلا تلخيصا للقول بأن معظم الأفراد الذين يكوّنون المجتمع أكثر همّا بهذه الجوانب بعينها من ثقافتهم مقارنة بغيرها. أو يمكن القول بصيغة أكثر دقة أن الهواجس المهيمنة (أو المركز عليها) في الثقافة هي الجوانب الثقافية التي تشكل الشاغل الأكبر للشخصية النمطية في تلك الثقافة. وثمة جانب مهم في العلاقة المتبادلة ما بين التركيز الثقافي والشخصية النمطية تتمثل في أن هذه الشخصية لا تكتفي بمنزلة عليا للجوانب المركز عليها في الثقافة، وإنما تعتبرها، على نحو متعصب للقومية، في منزلة تتفوق فيها على مثيلاتها من الثقافات الأخرى.

2) في سبيل طرح ما تقدم ذكره كفرضية فاعلة، أفترق هنا عن هيرسكوفيتز الذي يرى بأن الجوانب المركّز عليها هي بالضبط الموقع الذي يحدث فيه التغيير الثقافي (راجع كتابه: الإنسان وأعماله؛ ص544، 550-551)، حيث استعمل ملاحظاتي عن الاتصال الثقافي بين اليهود والعرب في فلسطين أيام الانتداب البريطاني لإعطاء مثال عن فرضيته.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

بؤرة التركيز الثقافي، زادت المصلحة والعزم على تقديم الابتكار إليه، وذلك لأن الابتكارات هي تطويرات مبنية على خبرة سابقة، وبالتالي فهي محبذة. وفي مثل هذه الثقافة تكون الهواجس المركز عليها، وبسبب ما تجتذبه من اهتمام كبير، عرضة لبحث متواصل عن أي تحسينات يمكن إدخالها عليها. وهذا يشرح سبب ما يجري في الثقافة التي تتخذ منحى تغييريا، كالثقافة الأمريكية، حين تكون الهواجس المهيمنة (التكنولوجيا مثلا) هي تماما المكان الذي يجد فيه المرء أسرع معدلات التغيير؛ أما المجالات الثقافية التي لا تستحوذ على التركيز (الدين السائد مثلا) فإن التغيير يكون أقل ظهورا، دون أن يكون هذا ناشئا عن عدم الاهتمام بهذه المجالات؛ ويكون الموقف النمطي تجاه هذه المجالات «لا تغير ما لا حاجة إلى تغييره»، بينما ليس هنالك في الهواجس المركز عليها ما يُعد دون حاجة إلى التغيير، وهكذا تستمر عجلة التجارب بالدوران لتطوير البدائل المثلى.

يعتبر الجديد أفضل من القديم بحسب معايير الثقافة الغربية الحديثة، وبهذا يعتبر التغيير بحد ذاته أمرا جيدا؛ أما في الثقافات العربية المقيدة بالتقاليد فيعتبر القديم أفضل من الجديد، وبهذا يكون الإبقاء على النظام الراهن أمرا جيدا. وعندما بدأ دارسو الشرق الأدنى في الغرب أبحاثهم حول ما كانوا يحبون أن يطلقوا عليه في ذلك الوقت لقب «بلاد الكتاب المقدس» كان من إحدى الصفات التي صدمتهم هي على وجه الدقة ذلك التوجه التقليدي الذي تشربت به الحياة العربية. وفي الواقع، كان انطباعهم عن الطبيعة المقيدة بالتقاليد للعالم العربي قويا إلى درجة صياغتهم لاصطلاح «الشرق العصي على الحركة». حيث بدا لهم وكأن حياة شعوب الشرق الأدنى، وما يتبعونه من عادات وتقاليد، وأساليب تفكيرهم وإحساسهم، قد بقيت دون تغيير منذ القدم. ونتج عن هذا المنهج دراسات عديدة خلصت إلى إظهار أوجه التشابه بين الحياة الموصوفة في الكتاب المقدس والحياة التي لاحظها أولئك الباحثون في المشهد العربي المعاصر لهم (القرن التاسع عشر)، وبالأخص في القرى، وفي فلسطين والدول المجاورة. وكان عبء الرسالة التي حملتها هذه الدراسات متمثلا في أن أوجه التشابه المبهرة هذه بيّنت إلى أي حد بقيت فيه الحياة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

في بلاد الكتاب المقدس دون تغيير منذ أيام الأنبياء إبراهيم وداود وعيسى، وبعبارة أخرى: كان الشرق «العصي على الحركة» فعلا.

إن هذه النظرة الساذجة أصبحت الآن شيئا من الماضي؛ إذ أن منهجا أكثر انتقادا بيّن لنا أن الشرق لم يكن «العصي على الحركة» على الإطلاق، وإنما حصلت فيه تغييرات على المستويين الاجتماعي والثقافي، ولكن هذه التغييرات كانت تغييرات ثانوية بطيئة إذا ما قمنا بمقارنتها مع التغييرات السريعة التي حدثت في العالم الغربي خلال القرنين الماضيين. ولا شك في أن دين الوحي يلعب دورا قويا في تطوير التوجه التقليدي عند العرب: فإذا آمن المجتمع بأن دينه أوحي به في وقت معين من الماضي إلى أعظم قائد ديني، فلا محالة دون تطوير ذهنية تعتبر الالتزام بتقليد ديني كقيمة عليا، وهذا يتبعه اعتبار التقاليد كلها على مكانة مماثلة. وعلى نحو محتوم، يعتقد أن العصر الذي شهد نزول الوحي كان أعظم العصور وأنبلها في التاريخ العربي، وتلاه انحطاط تدريجي مع تعاظم الهوة الزمنية التي تفصل بين الأجيال الجديدة وذلك العصر. وكل ابتكار يعتبر ذنبا لأنه يزيد من حجم الهوة، ومن يسعى إلى التغيير فعليه أن يفعل ذلك باتجاه واحد هو العودة إلى الحالة الأصلية الصافية الكاملة للدين. إن هذا الاعتقاد، وهو بحد ذاته عامل مثبط يقف بوجه كل ما هو جديد، وصفه الكاتب نبيه أمين فارس على نحو صاعق بقوله: «التقوى والفضيلة يكمنان في الطاعة والاتباع، بينما لا شيء أكثر كراهية من التغيير والابتداع».[1] كما أن هنالك عوامل أخرى تجعل من التوجه التقليدي موقفا مهيمنا في الثقافة العربية، ومنها: تقاليد العائلة بما فيها من سيطرة للعنصر الأبوي وكبار السن وتوقيرهم تحمل معها تفضيلا للأساليب القديمة للجيل القديم وتبنيها دون مساءلة والاستمرار عليها من قبل الجيل الأصغر سنا. كما إن ندرة الموارد المادية تحول دون ظهور روح مبتكرة: إذ يؤدي ذلك إلى نشوء شعور بوجوب الرضى بالقدرة على كسب المعيشة بالطرق التقليدية

1) نبيه أمين فارس: المجتمع الإسلامي والشيوعية. ضمن كتاب (الشرق الأوسط في حالته الانتقالية) من إعداد الكاتب والتر لاكوير (Walter Z. Laqueur)؛ ص353.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

التي حصلت على الموافقة من قبل وأثبتت الأيام نجاعتها، دون الدخول في مخاطرة الجوع الناتج عن تجريب الطرق الحديثة.

من الواضح هنا أن أي جانب يقدمه الغرب هو ابتكار، وبالتالي فإنه يواجه، بغض النظر عن ماهيته، ميلا لمعارضته من جانب العرب المقيدين بالتقاليد. وإذا ما أريد لهذا الجانب أن يلقى القليل من المعارضة، أو لا يلقى شيئا منها، فيجب أن يتميز بأكبر قدر ممكن من الفوائد الواضحة للعيان مباشرة؛ كما إن عليه أن يقع على مسافة بعيدة من حدود الهواجس المركز عليها للثقافة العربية التقليدية. ولهذا تكون الجوانب التكنولوجية التي لا يبدو عليها أنها تهدد أيا من القيم ذات المضمون التقليدي هي الجوانب الأكثر جاهزية للتقبل، وهنا يكون غياب الهاجس التقليدي تجاه التكنولوجيا يعني عدم وجود معارضة تقليدية تجاه المستجدات التكنولوجية كالراديو، ومصباح الكيروسين، والمدفأة، والمحراث الحديدي، والمضخة المائية ذات المحرك، وما أشبه ذلك. إن التوجه التقليدي يلعب دورا مهما في منع أو إعاقة تقديم المبتكرات الغربية في نطاقات الحياة التي تتصل بالقيم الأساسية: كالعائلة، والعلاقات الشخصية، والعفة الجنسية؛ وإلى مدى أضيق: الفنون والحرف التقليدية (وبالأخص: فنون الخطابة والكلام). فهذه النطاقات جميعها ذات مكانة عالية لا تنبع من مجرد كونها تقاليد قديمة في الحياة العربية فحسب، وإنما من الهالة الدينية التي تحيط بها.

تشكل الثقافة العربية، والثقافة الشرق أوسطية عموما، جزءا من الثقافة الشرقية، ولكنها تمتاز من بين الثقافات الشرقية جميعها بأنها الأقرب إلى الغرب من الناحيتين التاريخية والجغرافية. وقد شدد العديد من المفكرين العرب في العصر الراهن على الألفة التي تمتاز بها العلاقة بين العالم العربي والغرب مقارنة بعلاقة العالم العربي مع الثقافات الآسيوية العظيمة التي تقع إلى الشرق منه. وعلى الرغم من ذلك، فلا شك في أن كلا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

الثقافتين، في العالم العربي والغرب، تتصف باتخاذها أوضاعا شديدة الاختلاف. والعرب، ومسلمو الشرق الأوسط عموما، ذوو ثقافة تتصف بالقرب من ثقافات جنوب وجنوب شرق وشرق آسيا.[1]

هذا التجاذب المتضاد بين ثقافات الغرب والشرق يلخصه الكاتب البرتغالي فرانكو نوغويرا بشكل لافت، فيقول:

> إن المسافة بين العالمين، الغرب والشرق، كانت مسافة بعيدة. وكانت بديهيات الحياة مختلفة، وكثيرا ما كانت متعارضة، في ما بينهما. وكانت الحياة تتجه وفق قيم خصوصية وغير متلاقية على نحو متبادل. وكانت المراحل الاجتماعية والأخلاقية التي قطعها كل منهما شديدة الاختلاف إلى حد جعل من المستحيل تلاقيهما. فبالنسبة إلى مجتمع ريفي زراعي، كانت أوروبا تفتح على نحو غير متوقع الأبواب المؤدية للتحضر والتصنيع. وبينما سادت أنماط المجتمع الإقطاعي القديم والبنية الاجتماعية الأبوية التي يخضع فيها الفرد والدولة إلى سلطة العائلة، قدم الغرب أولوية الفرد ومنظمة الدولة. ومقابل نمط جماعي للدين يستمد تعاليمه من التقاليد الكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية والإسلامية في الوقت ذاته، كان للغرب فلسفة ذات أصل هيليني ودين ذي أصول عبرية مسيحية. كما أن الهواجس القديمة لثقافة مخصصة بالكامل لفنون أدبية ذات محتوى ثقافي واجتماعي مبطنة بفلسفة متحيزة، تم تجاهلها باهتمام غربي فائق بالابتكار العلمي والسعي إلى السيطرة على القوى المادية والتقدم في مجال العلوم الطبيعية.

---

1) عند الكلام عن ثقافات الشرق، وبالأخص منها المنظومات الدينية العظيمة للإسلام والهندوسية والبوذية والطاوية والكونفوشيوسية والشينتوية، يؤكد نورثروب (F. S. C. Northrop) في كتابه المؤثر (لقاء الشرق والغرب؛ ص313) على أن «تحديد الاختلافات الفلسفية والدينية التي تدخل في تشكيل ثقافات الشرق هو في الوقت نفسه استنتاج لروابط وهويات لا مفر منها. إن الوحدة التي توفرها هذه العلاقات والهويات الأساسية هي التي تدمج ثقافات بلدان الشرق في ثقافة تقليدية واحدة للشرق الأقصى». وقد خصص نورثروب كتابه هذا للمقارنة بين هذه الثقافة الشرقية ومثيلتها الغربية المنذهلة، والبحث عن التوفيق ما بين هذين الكيانين الثقافيين.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

ومقابل تمجيد الأسلاف طرح الغرب نظاما عمليا قوامه الإنسانية الاجتماعية؛ ومقابل الطاعة الشخصية التي تحترم الأكثر حكمة أو سنا طرح الغرب مفهوم التأدب الطبيعي الذي يعاقب على انتهاكه بموجب قانون عام. ومقابل نظام قائم على القبول بواقعية وجود دوافع غير معقولة مارس الغرب مبادئ النقد العقلاني الانتقائي المفصل ودافع عنها. وبسلوك يظهر منه احتقار مفهوم الثقافة كغاية بحد ذاتها، ادعى الغرب أنها وسيلة تستخدم في صراع الحياة. واصطدمت الفعالية المادية للإنسان الأوروبي بالتأمل الجامد للإنسان الآسيوي، وكانت مخيلة الأخير وحدسه تتناقض مع الذكاء الموضوعي للأول. وبهذه الطريقة استمر تنامي الفجوة الأخلاقية التي لا تزال عواقبها تتفاقم يوما بعد يوم.[1]

إن اقتحام الثقافة الغربية لا يتحدى التوجه التقليدي عند العرب فحسب، وإنما يتعداه إلى هواجس عربية مهيمنة أخرى.

1) فرانكو نوغويرا (Franco Nogueira): صراع على الشرق؛ ص15-16.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©